فصل
[في تخييل بغير تعليل]

وهذا نوع آخر من التخييل، وهو يرجع إلى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل. بيان ذلك أنهم يستعيرون الصفة المحسوسة من صفات الأشخاص للأوصاف المعقولة، ثم تراهم كأنهم قد وجدوا تلك الصفة بعينها، وأدركوها بأعينهم على حقيقتها، وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على باب، ولم يروه ولا طيف خيال، ومثاله استعارتهم العلو لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان، ثم وضعهم الكلام وضع من يذكر علواً من طريق المكان، ألا ترى إلى قول أبي تمام:

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السما

فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده، ويصمم على إنكاره وجحده، بجعله صاعداً في السماء من حيث المسافة الكائنة، لما كان لهذا الكلام وجه. ومن أبلغ ما يكون في هذا المعنى قول ابن الرومي:

أعلم الناس بالنجوم بنو نو بختَ علماً لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء سمراً بترق في المكرمات الصعاب
مبلغاً لم يكن ليبلغه الطا لب إلا بتلكم الأسباب

وأعاده في موضع آخر فزاد الدعوى قوة ومر فيها مرور من يقول صدقاً، يذكر حقاً:

يا آل نوبخت لاعدمتكم ولا تبدلت بعدكم بدلا

إن صح علم النجوم كان لكم حقاً إذا ما سواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن قاس ولكن بأن رقى فعلا
أعلاكم في السماء مجدكم فلستم تجهلون ما جهلا
شافهتم البدر بالسؤال عن الأمر إلى أن بلغتم زحلا

وهذا الحكم إذا استعاروا اسم الشيء بعينه من نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد فإنهم يبلغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضي بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة. ومثاله قوله:

قامت تظللني من الشمس نفس أعز على من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس

فلولا أنه أنسى نفسه أن ههنا استعارة ومجازاً من القول وعمل على دعوى شمس على الحقيقة لما كان لهذا التعجب معنى، فليس ببدع ولا منكر أن يظل إنسان حسن الوجه إنساناً ويقيه وهجاً بشخصه. وهكذا قول البحتري:

طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عاينوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقاً من الغرب والشرق[1]

معلوم أن القصد أن يخرج السامعين إلى التعجب لرؤية ما لم يروه قط ولم تجر العادة به ولن يتم للتعجب معناه الذي عناه ولا تظهر صورته على وضعها الخاص حتى يجترىء على الدعوى جراءة من لا يتوقف ولا يخشى إنكار منكر ولا يحفل بتكذيب الظاهر له ويوم النفس ـ شاءت أم أبت ـ تصور شمس ثابتة طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا وفقاً، وصار غرب تلك القديمة لهذه المتجددة شرقاً، ومدار هذا النوع الطالب على التعجب وهو والي أمره، وصانع سحره وصاحب سره، وتراه أبداً وقد أفضى بك إلى خلابة لم تكن عندك، وبرز لك في صورة ما حسبتها تظهر لك، ألا ترى أن صورة قوله: «شمس تظللني من الشمس» غير صورة قوله: «وما عاينوا شمسين» وإن اتفق الشعران في أنهما

(1) قوله وفقاً: أي متوافقين متطابقين ويقال: أثبته وفق طلعت الشمس: أي حين طلعت.

يتعجبان من وجود الشيء على خلاف ما يعقل ويعرف.

وهكذا قول المتنبي:

كبَّرت حول ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

له صورة غير صورة الأولين. وكذا قوله:

ولم أر قبلي من مشى البدر نحوه ولا رجلاً قامت تعانقه الأسد

تعرض تلك الصور كلها[1]، والاشتراك بينها عامي لا يدخل في السرقة، إذ لا اتفاق بأكثر من أن أثبت الشيء في جميع ذلك على خلاف ما يعرفه الناس. فأما إذا جئت إلى خصوص ما يخرج به عن المتعارف، فلا اتفاق ولا تناسب، لأن مكان الأعجوبة مرة أن تظلل الشمس من الشمس وأخرى أن ترى الشمس مثلاً لها تطلع من الغرب عند طلوعها من الشرق، وثالثة أن ترى الشمس طالعة من ديارهم. وعلى هذا الحد قوله: * ولم أر قبلي من مشى البدر نحوه * العجب من أن يمشي البدر إلى آدمي وتعانق الأسد رجلاً.

واعلم أن في هذا النوع مذهباً هو كأنه عكس مذهب التعجب ونقيضه وهو لطيف جداً. وذلك أن تنظر إلى خاصية ومعنى دقيق يكون في المشبه به ثم تثبت تلك الخاصية وذلك المعنى للمشبه وتتوصل بذلك إلى إيهام أن التشبيه قد خرج من البين، وزال عن الوهم والعين، أحسن توصل وألطفه، ويقام منه شبه الحجة على أن لا تشبيه ولا مجاز.

ومثاله قوله:

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر أزراره على القمر

قد عمد كما ترى إلى شيء هو خاصية في طبيعة القمر وأمر غريب من تأثيره، ثم جعل يرى أن قوماً أنكروا بلى الكتان بسرعة؛ وأنه قد أخذ ينهاهم عن

(1) تعرض (بوزن تضرب) أي تبدو وتظهر ـ وتلك الصور فاعلة، ويجوز أن يكون تعرض خطاباً للقارىء وتلك الصور مفعولة (ش).

التعجب من ذلك ويقول: أما ترونه قد زر أزراره على القمر، والقمر من شأنه أن يسرع بلى الكتان. وغرضه بهذا كله أن يعلم أن لا شك ولا مرية في أن المعاملة مع القمر نفسه، وأن الحديث عنه بعينه، وليس في البين شيء من غيره، وأن التشبيه قد نسي وأنسي، وصار كما يقول الشيخ أبو علي فيما يتعلق به الطرف: إنه شريعة منسوخة. وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر، وخفي حركته التي هي كالهمس، وكمسرى النفس في النفس، وإن أردت أن تظهر لك صحة عزيمتهم في هذا النحو على إخفاء التشبيه ومحو صورته من الوهم، فابرز صفحة التشبيه واكشف عن وجهه وقل: «لا تعجبوا من بلى غلالته فقد زَرَّ أزراره على من حسنهُ حسنُ القمر». ثم انظر هل ترى إلا كلاماً فاتراً، ومعنى نازلاً؟ وأخبر نفسك هل تجد ما كنت تجده من الأريحية! وانظر في أعين السامعين هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ودلالة على الإعجاب؟ ومن أين ذلك وأنى؟ وأنت بإظهار التشبيه تبطل على نفسك ما له وُضع البيتُ من الاحتجاج على وجوب البلى في الغلالة، والمنع من العجب فيه بتقرير الدلالة؟

وقد قال آخر في هذا المعنى بعينه إلا أن لفظه لا ينبىء عن القوة التي لهذا البيت في دعوى القمر وهو قوله:

ترى الثياب من الكتان يلمحها ... نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها ... والبدر في كل وقت طالع فيها[1]

ومما ينظر إلى قوله:

* قد زَر أزراره على القمر *

في أنه بلغ في دعواه في المجاز حقيقة مبلغ الاحتجاج به، كما يحتج بالحقيقة قول العباس بن الأحنف[2]:

(1) المعاجر: جمع معجر (كمنبر) ثوب تعتجر به المرأة أي تشده على رأسها.
(2) قوله: حقيقة مفعول دعواه. وقول العباس: من مؤخر خبره: ومما ينظر.

هي الشمس مكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

صورة هذا الكلام ونُصبته[1] والقالب الذي فيه أفرغ يقتضي أن التشبيه لم يجر في خلده وأنه معه كما يقال «لست منه وليس مني» وأن الأمر في ذلك قد بلغ مبلغاً لا حاجة معه إلى إقامة دليل وتصحيح دعوى، بل هو في الصحة والصدق بحيث تصحح به دعوى ثابتة. ألا تراه كأنه يقول للنفس: ما وجه الطمع في الوصول وقد علمت أن حديثك مع الشمس ومسكن السماء؟ أفلا تراه قد جعل كونها الشمس حجة على نفسه يصدقها بها عن أن ترجو الوصول إليها ويلجئها إلى العزاء، وَردَّها في ذلك إلى ما لا تشك فيه وهو مستقر ثابت كما تقول «أو ما علمت ذلك» و «أليس قد علمت»؟ ويَبين لك هذاالتفسير والتقرير فضلَ بيان بأن تقابل هذا البيت بقول الآخر:

فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد

وتتأمل أمر التشبيه فيه فإنك تجده على خلاف ما وصفت لك، وذلك أنه لم يجعل كونها الشمس حجة على ما ذكر بعدُ من قرب شخصها ومثالها في العين مع بعد منالها، بل قال: «هي الشمس» كذا قولاً مرسلاً يومىء فيه بل يفصح بالتشبيه ولم يرد أن يقول: لا تعجبوا أن تقرب وتبعد بعد أن علمتم أنها الشمس. حتى كأنه يقول: ما وجه شككم في ذلك، ولم يشك عاقل في أن الشمس كذلك؟ كما أراد العباس أن يقول: كيف الطمع في الوصول إليها مع علمك بأنها الشمس وأن الشمس مكنها السماء؟ فبيت ابن أبي عيينة في أن لم ينصرف عن التشبيه جملة ولم يبرز في صورة الجاحد له والمتبرىء منه كبيت بشار الذي صرح فيه بالتشبيه وهو:

أو كبدر السماء غير قريب حين يوفي والضوء فيه اقتراب

(1) النصبة بالضم واحدة النصب: وهي أعلام وسواري تنصب لمعرفة الطريق، والمراد هنا كما قال شيخنا: ساريته وعموده الذي عليه يقوم.

وكبيت المتنبي:

كأنها الشمسُ يعي كفَّ قابضه شعاعها ويراه الطرف مقتربا

[وجه الشبه المقصود بالذات والحاصل بالتبع]

فإن قلت: فهذا من قولك يؤدي إلى أن يكون الغرض من ذكر الشمس بيان حال المرأة في القرب من وجه والبعد من وجه آخر دون المبالغة في وصفها بالحسن وإشراق الوجه، وهو خلاف المعتاد لأن الذي يسبق إلى القلوب أو يقصد من نحو قولنا: هي كالشمس أو هي شمس ـ الجمالُ والحسن والبهاء[1] فالجواب أن الأمر وإن كان على ما قلت فإنه في نحو هذه الأحوال التي يقصد فيها إلى بيان أمر غير الحسن يصير كالشيء الذي يعقل من طريق العرف وعلى سبيل التبع، فأما أن يكون الغرض الذي له وضع الكلام فلا. وإذا تأملت قوله:

* فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها *

وقول بشار «أو كبدر السماء» وقول المتنبي «كأنها الشمس» علمت أنهم جعلوا جل غرضهم أن يصيروا لها شبهاً في كونها قريبة بعيدة وهو القياس أيضاً. فأما حديث الحسن فدخل في القصد على الحد الذي مضى في قوله:

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

فكما أن هذا لم يضع كلامه لجعل النعمة كالشمس في الضياء والإشراق ولكنها عمت[2] كما تعم الشمس بإشراقها، كذلك لم يضع هؤلاء أبياتهم على أن يجعلوا المرأة كالشمس والبدر في الحسن ونور الوجه بل أموا نحو المعنى الآخر، ثم حصل هذا لهم من غير أن احتاجوا فيه إلى تجشم. وإذا كان الأمر كذلك فلم يقل إن النعمة إنما عمت لأنها شمس ولكن أراك لعمومها وشمولها قياساً، تحرى أن يكون ذلك القياس من شيء شريف، له بالنعمة شبه من جهة

(1) الجمال خبر «لأن الذي يسبق إلى القلوب».

(2) قال شيخنا: أصله: ولكن لأنها عمت الخ.

أوصافه الخاصة فاختار الشمس. وكذلك لم يرد ابن أبي عيينة أن يقول إنها إنما دنت ونأت لأنها شمس أو لأنها الشمس بل قاس أمرها في ذلك كما عرفتك، وأما العباس فإنه قال إنها إنما كانت بحيث لا تنال ووجب اليأس من الوصول إليها لأجل أنها الشمس فاعرفه فرقاً واضحاً.

ومما هو على طريقة بيت العباس في الاحتجاج وإن خالفه فيما أذكره لك قول الصابىء في بعض الوزراء يهنئه بالتخلص من الاستتار:

صح أن الوزير بدر منير ... إذ توارى كما توارى البدور
غاب لا غاب ثم عاد كما كا ... ن على الأفق طالعاً يستنير
لا تسلني عن الوزير فقد بَيّـ ... ـنْتُ بالوصف أنه سابور
لا خلا منه صدر دست إذا ما ... قَرّ فيه تقرُّ منه الصدور[1]

فهو كما تراه يحتج أن لا مجاز في البين، فإن ذكر البدر وتسمية الممدوح به حقيقة، واحتجاجه صريح لقوله «صح» أنه كذلك. وأما احتجاج العباس وصاحبه في قوله:

* قد زر أزراره على القمر *

فعلى طريق الفحوى. فهذا وجه الموافقة. وأما وجه المخالفة فهو أنهما ادّعيا الشمس والقمر بأنفسهما وادّعى الصابىء بدراً لا البدر على الاطلاق. ومن ادّعاء الشمس على الإطلاق قول بشار:

بعثت بذكرها شعري ... وقدمت الهوى شركا
فلما شاقها قولي ... وشب الحب فاحتنكا
أتتني الشمس زائرة ... ولم تك تبرح الفلكا
وجدت العيش في سعدي ... وكان العيش قد هلكا

(1) الدست بالفتح: المجلس ويطلق على البيت وعلى الوسادة وعلى الثوب وعلى الحيلة والخديعة والنوبة من الغلبة كما يقال في الشطرنج ونحوه: الدست لي والدست علي (ش).

فقوله: «ولم تك تبرح الفلكا» يريك أنه ادَّعى الشمس نفسها.

وقال أشجع يرثي الرشيد فبدأ بالتعريف ثم نكّر فخلط إحدى الطريقتين بالأخرى وذلك قوله:

غربت بالمشرق الشمـ ـشُ فقل للعين تدمع
ما رأينا قط شمساً غربت من حيث تطلع

فقوله: «غربت بالمشرق الشمس» على حد قول بشار: «أتتني الشمس زائرة» في أنه خيّل إليك شمس السماء. وقوله بعد «ما رأينا قط شمساً» يُفتِر[1] أمر هذا التخييل ويميل بك إلى أن تكون الشمس في قوله: «غربت بالمشرق الشمس» غير شمس السماء أعني غير مدّعَى أنها هي وذلك مما يضطرب عليها لمعنى ويقلق لأنه إذا لم يدّع الشمس نفسها لم يجب أن تكون جهة خراسان شرقاً له وإذا لم يجب ذلك لم يحصل ما أراده من الغرابة في غروبها من حيث تطلع. وأظن الوجه فيه أن تتأول تنكيره للشمس في الثاني على قولهم: خرجنا في شمس حارّة. يريدون في يوم كان للشمس فيه حرارة وفضل توقُّد، فيصير كأنه قال: ما عهدنا يوماً غربت فيه الشمس من حيث تطلع وهوت في جانب المشرق. وكثيراً ما يتفق في كلام الناس ما يوهم ضرباً من التنكير في الشمس كقولهم: «شمس صيفية» وكقوله:

* واللّه لا طلعت شمس ولا غربت *

ولا فرق بين هذا وبين قول المتنبي:

لم يُر قَرنُ الشمس في شرقه فشكت الأنفس في غربه[2]

ويجيء التنكير في القمر والهلال على هذا الحد فمنه قول بشار:

---

(1) يفتر من الإفتار: يضيق، أو يفتر من التفتير أي يجعله فاتراً (ش) والمؤدى واحد.

(2) قوله «فشكت» معطوف على «ير» أي لم يرى الشروق مقروناً بالشك في الغروب بل من رأى الشمس شارقة أيقن بغروبها.

أمـلـي لا تـأت فـي قـمـر بـحـديـث واتـق الـدُّرَعـا[1]
وتـوقَّ الـطـيـب لـيـلـتـنـا إنـه واش إذا سـطـعـا

فهذا بمعْنى: لا نأت في وقت قد طلع فيه القمر. وهكذا قول عمر بن أبي ربيعة:

وغـاب قُـمـيـر كـنـت أرجـو غـيـوبـه وروّح رعـيـانٌ ونـوَّمَ سُـمَّـرُ[2]

ظاهره يوهم أنه كقولك: جاءني رجل، وليس كذلك في الحقيقة لأن الاسم لا يكون نكرة حتى يعم شيئين وأكثر وليس هنا شيئان يعمهما اسم القمر[3] وهكذا قول أبي العتاهية:

تـسـر إذا نـظـرت إلـى هـلال ونـقـصـك إذ نـظـرت إلـى الـهـلال

ليس المنكر غير المعرف، على أن للهلال في هذا التنكير فضل تمكن ليس للقمر[4] ألا تراه قد جمع في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: 189] ولم يجمع القمر على هذا الحد.

ومن لطيف هذا التفكير قول البحتري:

وبـدريـن أنـضـيـنـاهـمـا بـعـد ثـالـث أكـلـنـاه بـالإيـجـاف حـتـى تـمـحـقـا

---

(1) الدرع (كصرد) ثلاث ليال تلي البيض سميت بذلك لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها.

(2) روّح الرعيان أي ردوا إبلهم إلى المراح. والسمّر جمع سامر وهو المحادث ليلاً. والبيت من القصيدة المشهورة التي أنشدها عمرُ ابنَ عباس (رضي اللّه عنهما) فحفظها من مرة واحدة ومطلعها:
أمـن آل نـعـم أنـت غـاد فـمـبـكـر غـداة غـد أم رائـح فـمـهـجـر
ولام ابن عباس بعضُ أصحابه على حفظ هذه القصيدة فقال منكراً لومه: «أمن آل نعم»؟ يـتجيدها.

(3) أي بحسب ما يرى الناس بأبصارهم فجرى فيه كلامهم وشعرهم. والواقع الذي ثبت بالنظر في المرايا الفلكية أن في السماء أقماراً متعددة تابعة لبعض الدراري، فالمشتري منها له أربعة أقمار.

(4) يعني أن الهلال أشد قبولاً للتنكير ويجري فيه معناه بخلاف القمر (ش).

ومما أتى مستكرهاً نابياً يتظلم منه المعنى وينكره قول أبي تمام:

قريب الندى نائي المحل كأنه هلال قريب النور ناء منازله

سبب الاستكراه وأن المعنى ينبو عنه أنه يوهم بظاهره أن ههنا أهلّة ليس لها هذا الحكم، أعني أنه يتناءى مكانه ويدنو نوره، وذلك محال، فالذي يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرفاً على حده في بيت البحتري:

كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

فإن قلت: أقطع وأستأنف فأقول «كأنه هلال» وأسكت ثم أبتدىء وآخذ في الحديث عن شأن الهلال بقولي «قريب النور ناء منازله» أمكنك[1] ولكنك تعلم ما يشكوه إليه المعنى من نبو اللفظ وسوء ملاءمة العبارة. واستقصاء هذا الموضع يقطع عن الغرض وحقه أن يفرد له فصل.

❀ ❀ ❀

[عود على ادعاء المجاز حقيقة]

وأعود إلى حديث المجاز وإخفائه ودعوى الحقيقة وحمل النفس على تخيلها. فمما يدخل في هذا الفن ويجب أن يوازن بينه وبين ما مضى قول سعيد ابن حميد:

وعد البدر بالزيارة ليلا فإذا ما وفى قضيت نذوري
قلت يا سيدي ولِم تؤثر اللـ ـيل على بهجة النهار المنير؟
قال لي لا أحب تغيير رسمي هكذا الرسم في طلوع البدور

قالوا: وله في ضده:

قلت زوري فأرسلت أنا آتيك سحره
قلت فالليل كان أخـ ـفى وأدنى مسره

(1) أمكنك: جواب: فإن قلت.

فأجابت بحجة زادت القلب حسره
أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

وينبغي أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى من حيث اختار النهار وقتاً للزيارة في تلك، والليل في هذه، فأما من حيث يختلف جوهر الشعر ويتفق خصوصاً من حيث ينظر الآن فمثل وشبيه؛ وليس بصد ولا نقيض.

ثم اعلم أنا إن وازنا بين هاتين القطعتين وبين ماتقدم من بيت العباس «هي الشمس مكنها في السماء» وما هو في صورته وجدناهما أمراً بين أمرين - بين ادعاء البدر والشمس أنفسهما، وبين إثبات بدر ثان وشمس ثانية، ورأينا الشاعر قد شاب في ذلك الإنكار بالاعتراف، وصادَفت صورة المجاز تعرضُ عنك مرة وتعرض لك أخرى. فقوله «البدر» بالتعريف مع قوله: «لا أحب تغيير رسمي» وتركه أن يقول: رسم مثلي يخيل إليك البدر نفسه، وقوله: «في طلوع البدور» بالجمع دون أن يفرد فيقول «هكذا الرسم في طلوع البدور» يلتفت بك إلى بدر ثان ويعطيك الاعتراف بالمجاز على وجه. وهكذا القول في القطعة الثانية لأن قولك «أنا شمس» بالتنكير اعتراف بشمس ثانية أو كالاعتراف.

ومما يدل دلالة واضحة على دعوى الحقيقة ولا يستقيم إلا عليها قول المتنبي:

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معاً

أراد: فأرتني الشمس والقمر ثم غلب اسم القمر كقول الفرزدق:

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

لولا تخيل أنها الشمس نفسها لم يكن لتغليب اسم القمر والتعريف بالألف واللام معنى. وكذلك لولا ضبطه نفسه حتى لا يجري المجاز والتشبيه في وهمه لكان قوله: «في وقت معاً» لغواً من القول، فليس بعجيب أن يتراءى لك وجه غادة حسناء في وقت طلوع القمر وتوسطه السماء، وهذا أظهر من أن يخفى. وأما تشبيه أبي الفتح لهذا البيت بقول القائل:

وإذا الغزالة في السماء ترفعت وبدا النهار لوقته يترجل[1]
أبدت لوجه الشمس وجهاً مثلهِ تلقى السماء بمثل ما تستقبل

فتشبيه على الجملة ومن حيث أصل المعنى وصورته في المعقول، فأما الصورة الخاصة التي تحدث له بالصنعة فلم يعرض لها.

ومما له طبقة عالية في هذا القبيل وشكل يدل على شدة الشكيمة وعلو المأخذ قول الفرزدق:

أبي أحمد الغيثين صعصعة الذي متى تخلف الجوزاء والدَّلو يمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر على الموت تعلم أنه غير مخفر[2]

أفلا تراه كيف ادّعى لأبيه اسم الغيث ادّعاء من سلم له ذلك ومن لا يخطر بباله أنه مجاز فيه ومتناول له من طريق التشبيه وحتى كأن الأمر في هذه الشهرة بحيث يقال: أي الغيثين أجود؟ فيقال صعصعة، وحتى بلغ تمكن ذلك في العرف إلى أن يتوقف السامع عند إطلاق الاسم، فإذا قيل: أتاك الغيث لم تعلم أيُراد صعصعة أم المطر؟ وإن أردت أن تعرف مقدار ماله من القوة في هذا التخييل وأن مصدره مصدر الشيء المتعارف الذي لا حاجة به إلى مقدمة يبني عليها نحو أن تبدأ فتقول: أبي نظير الغيث وثان له وغيث ثان، ثم تقول: وهو خير الغيثين لأنه لا يختلف إذا اختلفت الأنواء[3] فانظر إلى موقع الاسم فإنك تراه واقعاً موقعاً لا سبيل لك فيه إلى حل عقد التثنية[4] وتفريق المذكورين بالاسم، وذلك أن (أفعل) لا تصح إضافته إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر فلا يقال: جاءني أفضل

(1) ترجلت الشمس: ارتفعت وترجل النهار: ارتفع قال * وهاج به لما ترجلت الضحى *.
(2) رواية الأغاني «يعلم» بالبناء للمفعول. والفرزدق: الرغيف الضخم وهو لقب غلب على الشاعر المشهور وكان وجهه غليظاً جهماً واسمه همام بن غالب بن صعصعة الذي يفتخر به في البيت الأول. فالمراد بقوله (أبي) جده وكان مشهوراً في الجاهلية بشراء البنات اللائي يراد وأدهن لتخليصهن من الموت، والمخفر: مزيل الخفارة وهي من اسم خفرة إذا حماه ومنعه وأمنه.
(3) أي لا تختلف أوقاته وحق التعبير: لا يتخلف إذا تخلفت الأنواء. قاله وكتبه شيخنا.
(4) وفي نسخة «البنية».

زيد وعمرو، ولا أتى أعلم بكر وخالد عندي. بل ليس إلا أن تضيف إلى اسم مثنى أو مجموع في نفسه نحو: أفضل الرجلين وأفضل الرجال، وذلك أن أفعل التفضيل بعض ما يضاف إليه أبداً فحقه أن يضاف إلى اسم يحويه وغيره. وإذا كان الأمر كذلك علمت أن اللفظ بالتشبيه والخروج عن صريح جعل اللفظ للحقيقة متعذر عليك، إذ لا يمكنك أن تقول: أبي أحمد الغيث والثاني له والتشبيه به، ولا شيئاً من هذا النحو، لأنك تقع بذلك في إضافة أفعل إلى اسمين معطوف أحدهما على الآخر.

وإذ قد عرفت هذا فانظر إلى قول الآخر:

قد قحط الناس في زمانهم حتى إذا جئت جئت بالدِّرَر[1]
غيثان في ساعة لنا اتفقا فمرحباً بالأمير والمطر

[بناء الاستعارة والتخييل على تناسي التشبيه]

فإنك تراه لا يبلغ هذه المنزلة، وذلك أنه كلام من يثبته الآن غيثاً ولا يدّعي فيه عرفاً جارياً وأمراً مشهوراً متعارفاً يعلم كل واحد منه ما يعلمه. وليس بمتعذر أن يقول: غيث وثان للغيث اتفقا[2]. أو يقول: الأمير ثاني الغيث والغيث اتفقا. فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت في مكانه وكان موضعه من الكلام أضن به وأشد محاماة عليه وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر وتصرح بالتشبيه فأمر التخييل فيه أقوى، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم.

واعلم أن قول البحتري:

غيثان إن جدب تتابع أقبلا وهما ربيع مؤمل وخريفه

لا يكون مما نحن بصدده في شيء، لأن كل واحد من الغيثين في هذا البيت مجاز، لأنه أراد أن يشبه كل واحد من الممدوحين بالغيث. والذي نحن

(1) قحط كعلم وبضم القاف للمجهول، والدرر بالكسر جمع درة كسدرة وسدر السحاب.
(2) أي فيجوز حل عقد التثنية (ش).

بصدده هو أن يضم المجاز إلى الحقيقة في عقد التثنية، ولكن إن ضممت إليه[1] قوله:

فلم أر ضِرغامين أصدقَ منكما عراكاً إذا الهيابة النكس كذبا[2]

كان لك ذلك لأن أحد الضرغامين حقيقة والآخر مجاز. فإن قلت: فههنا شيء يردك إلى ما أبيّنه من بقاء حكم التشبيه في جعله إياه الغيث، وذلك أن تقدير الحقيقة في المجاز إنما يتصور في نحو بيت البحتري: «فلم أر ضرغامين» من حيث عمد إلى واحد من الأسود ثم جعل الممدوح أسداً على الحقيقة قد قارنه وضامه ولا سبيل للفرزدق إلى ذلك، لأن الذي يقرنه إلى أبيه هو الغيث على الإطلاق. وإذا كان الغيث على الإطلاق لم يبق شيء يستحق هذا الاسم ويدخل تحته[3]، وإذا كان كذلك حصل منه أن لا يكون أبو الفرزدق غيثاً على الحقيقة - فالجواب أن مذهب ذلك ليس على ما تتوهمه ولكن على أصل في التشبيه، وهو أن يقصد إلى المعنى الذي من أجله يشبه الفرع بالأصل كالشجاعة في الأسد والمضاء في السّيف وينحّي سائر الأوصاف جانباً وذلك المعنى في الغيث هو النفع العام. وإذا قدر هذا التقدير صار جنس الغيث كأنه عين واحدة[4] وشيء واحد. وإذا عاد بك الأمر إلى أن تتصوره تصور العين الواحدة دون الجنس كان ضم أبي الفرزدق إليه بمنزلة ضمك إلى الشمس رجلاً أو امرأة تريد أن تبالغ في وصفهما بأوصاف الشمس وتنزيلهما منزلتها، كما تجده في نحو قوله:

فليت طالعة الشمسين غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغب

---

(1) أي إلى ما نحن بصدده.

(2) الهيّابة صيغة مبالغة من هاب أي: الكثير الخوف، والنكس بالكسر: الرذل.

(3) أي فجميع أفراد الغيث دخل في لفظه فأبو الفرزدق خارج عنه بالضرورة، فمتى ذكره ثاني الغيث علم أنه مجاز لأنه ليس له غيثان بل لا غيث إلا واحد شامل لجميع أفراده وليس منها أبو الفرزدق (ش).

(4) أي مشخصة لا عموم فيها، وذلك أنك لاحظت الغيث في جميع أفراده جملة واحدة ونظرت إليه نظرك إلى الشيء الواحد ثم شبهت به أبا الفرزدق وضممته إليه (ش).